آن لنا أن نفرح

((مجموعة قصصية))

قاسم محمد توفيق

كافة الحقوق محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى

عمان : 1977

الطابعون
مطبعة الشرق ومكتبتها
عمان

الإهداء

إلى الذين يصنعون الفرح
رغماً عن الحزن.

قاسم

ملاحظة

الكلام بين الأقواس تداعي

الفرح وآلهة الحزن

نموت يا حبيبة، كل يوم ،نحطم ونسحق ، يكسرون الشوك في عيوننا ، ويصلبوننا ، آلاف المرات ، كل يوم ، دماؤنا تكثف حتى وصلت إلى ركبنا .. ولأننا يا حبيبة، نعاني من الحزن وألام

والدموع، فقد قررنا أن نحترف الفرح ، اقسم لك بأنا لن نتراجع عن قرار اتخذناه.

(مقطع من كلمات « فارس المهاجم » إلي حبيبته في لقاء بينهما) .

عزيزي :

أفكر بك دائماً ، أنت يا هذا البعيد ، ما زلت احبك ، وسأبقى إلى الأبد .

(فكرة في رأس « أمينة » لم تكتبها في رسالة بعد) .

بالأمس التقينا ، تعانقنا، شد على أصابعي وسرنا معاً ، كان النهار جميلاً ، اقترب مني، وطبع على شفتي قبلة ، دفء ملائكي

أصابني ، امسك ذقني الصغير بيده وقال .. سنلتقي دائماً .. حلفت له ، بان ذلك سيكون . ابتعد وهو يلوح لي .. آه .. كم احبك .

(مذكرات لم تتحول إلى حروف من يوميات « أمينة »)

« ١ »

وتتراطم أمواج الشاطئ القوية بالصخور ، نركض ، نطبع بأقدامنا الدقيقة ،رسومات على الرمال المفروشة في طول لانهائي يحد البحر العظيم ، الزرقة في البحر وحدتنا مع السماء ، لم يبق شيء ينقص ارضنا .

تجلس أمينة على الرمال ، ينحسر ثوبها القصير عن ركبة بيضاء ، اخجل من النظر إليها ، فتصرخ بي :

ـ تعال يا فارس . سنبني قصراً .

أغالب خجلي الذي يكسو وجهي بحمرة والتهاب ، اركع على ركبتي وابدأ بالحفر ، نتعب فننسى السماء ، والبحر ، وننسى أننا ما زلنا صغاراً .

قلت : سأبني بيتاً ؟

أجابت : وسنترك أولادنا يحبون ويعشقون .
تجمع الحلزون الكثير ، تدفعه إلى أذنها ، افعل مثلها ، نبتسم للصوت القادم منها ، نضحك بصوت مرتفع .
قالت : تغني .. استمع يا فارس أنها تغني لنا .
أجبت : لنا وللأرض وللبحر ، لنركض وراء صوتها .
ونركض محاولين التقاط الصوت الإلهي المنبعث من الحلزون . . وأقدامنا والبحر والسماء نركض دون أن نشعر بتعب.
في النهاية ، نجلس متقاربين ، نرقب الشمس وقد أخذت تقترب من البحر ظمأى . وتهبط في بحرنا الأزرق الجميل ،

ينطفئ حرها .

((٢))

قالت : هل كنت تتصور يوماً ، أن نترك ذلك البحر ؟
أجبت : وهل تركناه يا أمينة ؟ اشعر به ،ما يزال في عيني وفي قلبي وفي أذني . اشعر به ، قريباً من هنا . ها هنا الرمل المنبطح الكثير وهناك أكداس الحلزون الذي تحبين ، هل تسمعين موسيقاها .. أنها رائعة .

ما زلت ، يا أمينة ، صغيرة . لا تخجلي أن ينحسر ثوبك .فخداك بيضاوان كوردتين .

قالت ما زال البحر في عيني ، مازلت أسمع الحلزون يغني ، أني أسمعها يا فارس . . هل تسمع ؟ ؟

قلت : اسمعها تقترب . . تقترب ، دعينا نعانقها ، نركض صوبها ، انها تنادي علينا ، تغني ، تعالوا إلي . . انظري كم هي جميلة .
نركض ، ونركض ، ونركض .

((٣))

ذهبنا إلى البحر كعادتنا ، جلسنا نحفر بترابه الدافئ نبني بيتاً ، نعيش به ، ونسمع إلى صوت الغناء المنبعث من الحلزون ، كانت الشمس ،تسقط عطشى ،ابتعدت في زرقة بحرنا شيئاً فشيئاً، لم تختفف بعد ،سمعنا رصاصاً يعلو في المدينة ،سمعنا انفجارات كثيرة ، فهمنا بالحال انهم ذوو الرائحة القذرة . .

قلت : لا بد وإنها الحرب (يا أمينة) هل تظنين هؤلاء، يملكون من الرحمة شيئاً . . . أخاف يا أمينة .

قالت : ومما تخاف ؟

قلت : أخاف على السماء والشمس ، أخاف على بحرنا الأزرق هذا ورمله . . أخاف على الحلزون والغناء الدافئ ، هل تخافين مثلي ؟ ؟

ردت بثقة : إنها لنا ، كلها ، أليس كذلك ؟ ؟

كنا أطفالاً ، والشمس لم تغرب بعد .

((٤))

قلت : سأرحل يا (أمينة) سأكتب لك عن التراب الدافيء وسأنتظر الشمس حتى تغتسل بمياه البحر .

واصرخ : حبيبتي (أمينة) ، ما زلنا نملك البحر.. مازالت

الشمس لنا .

قالت : احبك ، واعشق بحرنا ، احب أن أجيء معك .

قلت : سوف نرجع قريباً ، معاً ، امسك يدك واركض على الشاطئ يجب أن أسبقك لازرع الورد على الدرب ! .

((٥))

حملنا أبى على ظهر سيارته ،وضعنا من عفشنا ،الشيء القليل ، واخترقنا البيوت والناس المتسابقين في كل مكان ، الدمار والخوف كانا يسكنان كل الأرض ، ما عدا بحرنا ، فقد تراطم موجه بالصخر ، وكانت الشمس تهبط ، بهدوء وسلام ، لم يكن شيء قد تغير . رحلنا وغناء الحلزون في أذني دافئ جميل !

((٦))

سلمت بطاقتي بعد سنين طويلة إلى موظف ، وقد فصلني عنه جدار زجاجي ، الصفوف طويلة ، الكل يسعى إلى كسب وظيفة ، قلب بطاقتي بيده ، رمقني من اسفل إلى أعلى وبالعكس.

سألني متهكماً : ((فارس المهاجم)) اسم لمعلم هذا ؟

قلت : أظنه اكثر ما يصلح لهذا المهنة .

قال : لم تفهمني بعد !

كنا نتحدث ، وفتاة جميلة تنظر إلي بفرح حزين ، تريد شيأ.

أعاد الموظف : فارس المهاجم ؟

امسكتني الفتاة من يدي ، وهي تخفي دمعة في عينها :

- أنت فارس ، الرمل ، البحر ، الشمس . . . فارس .

وعرفتها ؛ ((أمينة)) . عانقتها بحرارة .

((٧))

ذهب ((فارس)) يحمل على كتفه السلاح الذي تمنى دائماً أن يحمله ، ودعني بقبلة ، رفع إصبعه وتلقى دموعي بابتسامة : وسنلتقي يا أمينة .

قلت أعدك يا حبيبي ، سنلتقي .

خرج – يا صفحات دفتري – وعاد طيفاً ، طيف شهيد ، كان فرحاً ، هل تصدقين ؟ عاد يعانقني ويمسح دموعي .

يا صفحات دفتري ، اعذريني أن كنت سأتركك ، فحبيبي ينتظرني ، أن حبيبي رائع وأنا ذاهبة لالقاه .

(اسطر من مذكرات أمينة)

ولاننا يا حبيبة نعاني من الحزن والألم والدموع ، فقد قررنا أن نحترف الفرح ، اقسم لك بأننا لن نتراجع عن قرار اتخذناه .

*

لا تنامي يا حبيبتي . . .
الحب سيطرق كل الأبواب

ثلاثية عن الموت والياسمين .

- 1 -

المكان : منجم في باطن الأرض .

الشخوص : خمسة رجال ، أحدهم يجلس على مقعد ،
والأربعة الآخرون يحفرون بنشاط ، يرتدون
قبعات حديدية ، الأنهاك باد عليهم .

ينتهزون فرصة انشداد الرجل الخامس إلى المذياع ، ليهمس بعضهم إلى الأخر . . .

الأول : هل تفكر بانهيار الجبل علينا ؟ في المرة السابقة تركونا نموت ، لولا أننا تمالكنا أنفسنا وحفرنا طريقاً لنا .

الثاني : الحق أنا أفكر بابنتي ، لقد أصبحت غريبة . منذ أن دخلت الجامعة وهي تقرأ بنهم عظيم وتكلمني بإشفاق . تصور ، أنها تشفق علينا .

الأول : كانوا يصرخون بالخارج : (أنقذوا المراقب) نسونا هنا وكأن المراقب ، هو الوحيد المعرض للموت .

الثاني : كنت احبها ، ولكنني الآن احترمها ، أتكلم معها كثيراً ، تسألني عمن يمثلنا في النقابة ؟ نحن العمال ، النقابة باسمنا ، ولكن الأعضاء كلهم من المكتبة .

الأول : المدير متزوج من ابنة المراقب ، لذلك ، تحمس لإنقاذه في المرة السابقة .

الثاني : قرأت لي عن حفلات تقيمها نقابتنا ، تلك الحفلات التي يقتطع من رواتبنا لها .

الثالث (متدخلاً) : تمنيت ، أن اعرف موقع النقابة ، تجرأت ، مرة وسألت عنها ، فلطمني المراقب ، قال لي : انتبه لعملك وحسب . . .

الرابع (ساخراً) : وماذا فعلت ؟

الثالث : انتبهت . .

الأول : لماذا ينهار المنجم ؟

الثالث : لأنك ما زلت تجهل موقع النقابة . . . نقابتنا

الثاني : ابنتي تعرف ، وتقول بان لهذه النقابة، بناية عظيمة، فيها مقاعد كثيرة ، ورجال يلبسون بذلات أنيقة . بذلات كاملة لها ربطات عنق . وتقول بان هناك كتلاً عظيمة ، مما نستخرج .

الرابع (مقاطعاً) : ويحصلون على جوائز مقابل ذلك . . هل تعلمون ، بأننا نصنع أشياء جميلة . لكننا لا نفرح بها ؟ (متألماً) هذا محزن ، أليس كذلك ؟ . . . محزن ، الا نفرح بالأشياء التي نصنعها !!

الثاني : ابنتي تقول ، بأننا نستطيع أن نحصل عليها ، ونفرح بها ، هل تصدقون ، بأنها تقول ، بأننا كل شيء وأننا أصحاب الحق في كل الأمور ، والله إنني مندهش لما تقوله ، فهو قريب من الواقع ، قريب منا ، ولكننا لا نشعر به . هذه اليد (يرفع يده) . . هذه اليد هدمت الجبل الشاهق هذا . . فهل يصعب عليها بناء حياتنا ؟

الثالث : سيبقى الأمر صعباً ، ما دمت تفكر بيدك ، دون أن تنتقل إلى أعلى منها قليلاً . .

الرابع : آه . . حقاً هذا الجبل العظيم ، اخترقناه . نحن أقوياء ، أقوياء فعلاً .

الأول : قد ينهار الجبل .

الثالث : وقد لا ينهار . .

الثاني : ابنتي تقول . . .

الثالث : ابنتك لم تحمل الفأس ، فلتقل أنت ، ولا تكن بعيداً عنها .

صفارة طويلة ، تعلن عن استراحة الغذاء ، يلقي الأربعة ، ما بأيديهم ويمشون إلى الخارج ، بواسطة عربات نقل .
عند مدخل المنجم ، أعتقل الأربعة

* * *

- 2 -

فــي الحانــة كــان ثلاثــة يحاصــرون ، زجاجــات ((العــرق)) وصــحون الفسـتق والجـزر . بقايـا ضـوء يتسـلل إلـى الزاويـة التـي تتحـرك فيهـا الأشـباح الثلاثـة وقـد غطيـت بكتـل الـدخان الكثيفـة . أصـوات تعلـو وتهبط وضـحكات تخـرج مـع قرقشـة الفسـتق تحـت الأسنان.

قال أحدهم يكمل موضوعاً :

- عندما انتهي من ذكر الخمر ، اعشق العودة لذكره ثانية . رغـم إننــي اكـره الهـروب الا اننــي اعتقـد بـان هروبنـا ، ثبـات . . .

رد الآخر:

ـ لكنك ، ستبقى مهزوماً ما دمت هارباً . اعظم عمل،يمكن أن تقوم به هو أن تبقى واقفاً ، مستعداً للانطلاق مع ضمان ثبات قدميك .

تدخل الثالث قائلاً :

ـ أخاف عليكما من الهرب والخمر والكلام . . .

ما زالوا يسكرون ، ويثرثرون في محاولة لنسيان أنهم لا يملكون ثمن الخمر الذي يشربونه .

* * *

- 3 -

الصفيح ، يتقاذفه الهواء الشديد ويكاد يحمله معه ، الا انه يرتفع ويعود ليرتطم بالحجارة الواقفة على شكل بيت ، فيحدث دوياً ، تجيبه أصوات أخرى من أطراف المخيم ، والمطر ينهمر، فتتكسر حباته على الشوادر وألواح الصفيح المتلاصقة .

تكتسب الأشياء ، لمعاناً مميزاً لكثرة الأمطار ، يكسر طوق الظلام المحاصر لها و ((سهيلا)) تهرع إلى البقالة الواقعة على الشارع العام ، وبيدها تنكة صفيح ، ترتطم برجليها الصغيرتين فيضيع الصوت الناتج عنها مع الأصوات العالية الأخرى .

ـ مساء الخير عمى ((أبو حسن)) .
ـ أهلاً . . . ((سهيلا)) حرام عليك البرد يا بنت .

يسحبها من يدها إلى داخل البقالة ، حيث أشعل كومة حطب داخل ((كانون)) ارتكز فوقه إبريق كان مرة بلون ابيض ، الميرامية مع البخار يخرجان من فم الابريق.

- بشلن كاز .. أمي معاهش فلوس ، أبوي لسه ما رجع .

يقترب أبو حسن من برميل الكاز يعاين حنفيته التي تسكب السائل الأبيض الذي يشبه الماء داخل ((التنكة الصفيح)) تشرد وهي ترقب يدي ((أبي حسن)) تضعا حداً لدفء خيمتهم في تلك الليلة ، وتتمنى لو انها تملك هذا البرميل أو انها تملك ((شلوناً)) كثيرة لكانت اشترت كازاً كثيراً ، ولكان الدفء، سرى في كل

الخيمة ، ولحملت منه إلى جارتها التي تعيش وحيدة ، بعد أن رحل ابنها كالطيور إلى الشمال . .

- يا الله يا ((سهيلاً)) بسرعة على البيت .

عادت تحمل التنكة ، صوب الخيمة التي يتمدد فيها ستة أطفال ، بانتظار العامل الذي تأخر حضوره كثيراً ، هرعت داخل المخيم ترطم الطين بقدميها الصغيرتين ، تحاول الابتعاد عن الحفر التي تحولت إلى برك ماء ، يسمع صوت أقدامها يغوص بالوحل ، بسهولة فتسحبها ثانية وتواصل المسير .

شعرها المجدل ، يقطر بالماء على فستانها الذي التصق بجسمها فتخلله البرد إلى داخل عظامها التي لم تنمو تماماً بعد .

عندما أوشكت أن تصل إلى البيت ، كان هناك شابان ، أحدهما يحمل سطلاً ، والثاني يحمل فرشاة ومجموعة من الأوراق ، يلصقها في الأماكن الجافة التي تصدفه . . .

أخذت ((سهيلا)) تشعر بالدفء يسري في ضلوعها وهي تفكر في الصباح حيث ستأتي إلى هنا ، لتتهجى المخطوط على الأوراق هذه . . كانت تحب هذا كثيراً ، وتؤمن به كثيراً ، وتحلم به وبعودة أبيها العامل ...

شدت خطاها إلى البيت ، وهي تبتسم ببراءة .

« **إلى أمي . . .** »

حوارية فلسطينية

« أتمنى يا ابني أن أشوف شجرة خضرا ، مغروسة في تراب اسمر ، تراب جميل يحضن الشجرة وتحضنه » .

نظرت إلى أبي وهو ينطق كلماته ... كان جالساً مسنداً رآسه على وسادة قديمة وهو ينظر إلى ركن الخيمة المهترئ ...
واكمل :

« زرع بلادنا يا ولدي اجمل ما في الكون ، فجأ انحرق ، اتحول فحم واحنا ضلينا خضر » .

دخلت أمي وهي تحمل إبريق الشاي ، جلست بقرب قدمي أبي ، رفعت الإبريق وأخذت تسكب الشاي ، رفعت عيني إلى أبي كانت دموعه تنسكب رقيقة فوق خده الأجعد ،رفع يده وبكمها مسح تلك الدموع .

« ليش بتبكي يابا ؟ ».

هبطت يده كهبوط طائر حزين فوق عشه ، على الوسادة . .

اخرج تنهيدة شعرت بها حارة اكثر من كأس الشاي التي في يدي، شعرت بها تلفحني .

جلست ساكناً ، وضعت كأس الشاي جانباً ، ركنت ظهري على وسادة كانت خلفي ، أردت أن اسمع ولم يطل انتظاري .
((كنا يابا سارحين على الشغل ، كنت أنت بعدك صغير بتلعب قدام البيت ، طلع أخوك ((ناصر)) معي ، رحنا على الشغل مثل كل يوم)) . . . صمت برهة من الوقت ، رشف جرعة من كأس الشاي ، اسنده جانباً ، نقل بصره إلى صدر الخيمة كانت ((سورة الكرسي)) معلقة فوق صورة شاب جميل ، هو أخي ((ناصر)) استمرت دموعه بالانسكاب .

((الله يرحمك يابا)) .

اسقط نظراته إلى الحصيرة الممزقة التي فرشت ارض الخيمة كأنها تلم نفسها خجلاً من أن يظهر ما بها من خرق ، عاد وتنهيدته وكانت تنهيدته اسخن من الأولى كثيراً .

لما شفتني قلت : بدي أروح معك يابا . بس أنا ما رضيت كانت أمك وحدها في البيت قلت اتركك يمكن يلزمها حاجة .

كانت يابا بلدنا كلها خضرا ، طلعت أمك من الطابون رغيفين ربطتهم مع حبتين بندورة وشوية زيتون . . من زيتون أرضنا ، وسرحنا .

توقفت أمي عن سكب الشاي . . نظرت إلى عينيها كان فيهما بريق عجيب ، كان يضيء البيت ، عرفت حالا هذا الضوء فقد نزلت دموعها من خلاله لآلئ تتدحرج على خديها المتجعدين، رائحة ((الميرمية)) ملأت الخيمة .

كانوا ثلاثة يشدوني إلى الأرض دموع أبي لآلئ أمي ورائحة ((الميرمية)) . بقيت صامتاً وأنا انتظر المزيد .. كنت اعرف النهاية ولكنها فارقتني في تلك اللحظة .

((سرحنا بكير – أكمل أبي – رحنا على الأرض ولآخر مرة في حياتي شفت الشجر كان اخضر محمل زيتون ، بدينا نشتغل فجأة سمعت صوت طلق جاي من القرية ، صاح ((ناصر))-((عملوها الكلاب هجموا على القرية)) . حمل بارودته كان ديماً حاملها – الله يرحمه – مسكته ، قال لي ((يابا ما تنسى انه في القرية أمي واخوي ، ما تنسى انه في القرية طفولتي)) تركته وراح ركاض ، اتجمعنا إحنا الفلاحين ودبينا نحو البلد .

كانت هادية . كل شي هادي ، جثة أخوك ((ناصر)) هادية، حتى أمك فوق رآسة هادية . . وبارودته يابا هادية .

سكتت يابا وما قدرت اعمل شي غير أني طملت وبست أخوك ((ناصر)) وحملته بأيدي كان بعده صغير . .

والقرية صغيرة

هذه هي القصة يابا ، ومن يومها ما شفت شجرة خضرا من يوم انحرق الشجر ورحلنا . . مشينا مش عارفين وين ، أنا وأنت وأمك .. والقرية كمان تركناها حريق . بس يابا إحنا ظلينا خضر، ونفسي أشوف شجرة خضرا .

انتهت كلمات أبي ، كان قد نام والدمع بعينيه وهو يحلم بشجرة خضراء . . اسرعت إلى رشاشي فقد كان علي واجب أؤديه .

ψϖ

ذكرى ليلة حزينة

أطفأت العشرين شمعة التي اصطفت على قطعة الكعك الكبيرة ، تبع ذلك تصفيق يختلف بين فتور وحراره مع كلمات أغنية تقليدية بالية !

كان يجب أن أبقى مبتسماً ، اقتربت مني أمي قبلتني وهي تمد لي بيدها علبة ذهبية تبعها أبي بكلمات التهنئة ، لم انطق بحرف ، أعطيت السكين لفتاة وقفت بجانبي كانت ترمقني بنظرات كنت اعرفها جيداً ، تناولتها مسرورة وأخذت بقطع الكعكة .

((فؤاد كامل)) هو اسمي ، ابن أحد أغنياء البلد ، وحيد والدي ، أتعاطى الفاليوم .

كل ما سبق حدث منذ سنة من الان في بيت كبير تحيط به حديقة واسعة . ما أن اخذ المدعون بالتهام ما كان مكدساً فوق الطاولة انتقاماً لتكلفهم إحضار الهدايا لي ، حتى انتابني صداع شديد ، كنت مضطراً على اثره ان أعطي السكين لأي إنسان أراه، رجعت إلى الحائط ، وقفت اسفل صورة ذات إطار عريض لطفل

صغير سكنت دميعات عينيه الزرقاوين الجميلتين، وكان مما يظهر في اللوحة ثياب الطفل الممزقة ، ذكرتني هذه اللوحة بأبي الذي لا يفتأ يطري الجمال الفني الذي بها .

استأذنت من المدعوين للحظة ، هرعت إلى غرفتي ، جلست وراء طاولة المكتب ، أخرجت كتاباً . . كانت هذه هي المرة الثانية التي أقرأ بها هذا الكتاب ، أخذت استعيد بعض الكلمات الجميلة التي به ، رفعت رأسي عن الكتاب برهة من الوقت ، وقعت عيني على فتاة جميلة ترتدي فستاناً أبرز تكويره صدرها ، أسندت ظهرها إلى الباب ، الذي أغلق بقوة ، عادت تنظر إلي بمثل النظرات السابقة :

((لا اعتقد انك تشك بجمالي)) كانت هذه هي الكلمات الأولى التي اسمعها منها رغم أني رأيتها كثيراً ، ولقد كانت محقة فالشهوة التي كانت تنطلق منها كافية لان تجعلها الهاً للجمال ، ومع ذلك فلم يرقني دخولها علي بهذه الصورة .

- من سمح لك بالدخول إلى هنا ؟

- أنت ، لنقل جاذبيتك . قالت وهي تقترب مني بحركات ماجنة .

- أرجوك يا آنسة احتفظي باحترامك .

سحبت مقعداً ، ألقت نفسها عليه وهي تنقل بصرها في أرجاء الغرفة .

- ذوقك جميل .

- هذا ليس ذوقي ، انه ذوق أمي .

استمرت بالتطلع بعيون معجبة بما ترى :

- واعتقد أني لم أسألك رأيك .

هبت واقفة ، ضربت كفيها ببعضهما

- رائع كما وصفوك لي .

- من هم ؟ - صرخت بها –

- من عرفن جاذبيتك .

وقفت مسرعاً ، درت حول الطاولة ، وقفت أمامها .

- لقد ذهب ذلك الوقت إلى غير رجعة ، فأرجوك اخرجي .

- لن افعل .
- أذن ماذا تريدين ؟
- اعتقد أن هذه الكنبة تفي بالغرض .

رفعت يدي بقوة صفعتها ، فتحت الباب وخرجت من جديد وعدت إلى الحفل . ضحكات عالية ، أصوات تقارع الكؤوس ، موسيقى صاخبة مجنونة ، ورقصات هستيرية . مثل ناد ليلي

كان البيت ، عاد الصداع إلي من جديد جلست منزو ، استرخيت ، اخذ الهدوء يعود إلي شيئاً فشيئاً ، أخذت الفرقة الموسيقية تعزف قطعة هادئة زادت في ارتياحي ، تعانق الجميع شيوخاً وشباباً ، اخذوا يتمايلون مع الأنغام الموسيقية ، عدد كبير من الراقصين احمرت وجوههم ، ضغط كلا الجنسين على شفتيه، توقف الرقص ، عاد عدد من الشباب يسب ويلعن ، مجموعة منهم انصرفت من الحفل ، وعادت بعد لحظات .

كانت أحداهن تتحدث إلى أبي ،قدمت أمي كأساً لأحد الشبان، أرسل أحدهم يده تحت ثوب فتاة كانت تتحدث معه ، ومن زاوية معتمة خرجت أصوات تأوهات خافتة ، خرج شاب من الغرفة المجاورة تبعته فتاة بعد لحظات وهي تعيد ترتيب شعرها .

استمر الصداع بتحطيم رأسي . خرجت قهقه عالية من أمي.

وقفت.

امسك أبي بخصر المرأه العجوز التي بجانبه .

تحركت نحو خزانة ، فتحتها .

رجع شاب وهو يحاول إصلاح وضع بنطلونه .

لم أجد علبة الدواء .

تعالت الضحكات .

وقفت أمام الطاولة .

أصبحت التأوهات قوية سريعة .

أمسكت الطاولة بكلتا يدي .

نظر إلي الجميع ، اقتربت مني أمي ، ما زالت ذات الصدر الصلب ترمقني بنظراتها .

رفعت الطاولة بقوة عظيمة .

انهال كل شيء على الأرض .

صرخات الاحتجاج كادت تفقدني السمع ، اقترب أبي مني بعيونه الحمراء وهو يقذفني بسبابه .

صرخت :-

كلاب ، خنازير ، قوادين . . .

اخرجوا .

آن لنا أن نفرح

وتبقين يا حبيبتي رغم سواد الليل . . . حبيبة

(اعرف انه ، يفصلنا جداران ، واحد صنعه الله . وأخر صنعته أنت ، واعرف تماماً أني احبك ، أو لنقل أقدسك واعمل لك كل ليلة في غرفتي الصغيرة . . محراباً أتعبد فيه لطيفك ، اعرف كثيراً من الأشياء ، لون عينيك ، بشرتك الناعمة ، شعرك المستدير القصير ، وانفك الرائع ، اعرف حزنك الدائم ، ودمعاتك الكثيرة ، يا الهي كم احفظ ابتسامتك التي تزورك قليلاً وتحملينها بثقة . . . جميل أن نكون واثقين من ابتسامتنا . . أليس كذلك ؟ ! -)

قالت :

- ما بك شارد ؟ !

متلعثماً أجبت :

- لا ، أنا معك

- أنت دائماً معي.

نظرت إلي تريد أن تتكلم ، ولكنها تصمت فازداد فهماً لها ، تبتسم بتلك الثقة الهائلة . تسللت أصابعي بهدوء لتقطع الحاجز الخشبي الممتد أمامنا ، اضغط على يدها فأطمئن .

- ما رأيك ، هل نطلب شاياً ؟

سألتها :

- مرة أخرى ؟

تومي برأسها – نعم – ترفع يدها ، يسرع الشاب الواقف في الطرف – الشهرزاد – ينقل الفناجين القديمة ويغيب ، تهدأ القاعة الصغيرة ، اغمض عيني لاستريح ، تلامس أصابعي . . انتبه لها، تهمس بحزنها العادي :

- تتألم يا إبراهيم ؟ حزين جداً يا عزيزي ، اكثر من حزن أيامنا .

- يجب أن نتألم ، لتؤمني أن الألم طريقنا .

- ولكنك تقتل نفسك ، لتذهب إلى الجامعة إلى الجحيم . .
لست أول . . ولم ادعها تكمل . . .

- لست أول من يطرد ، اعرف كان لا بد أن يحصل شيئاً ، أن نقدم شيئاً أي شيء . . . لا تسيء الظن بنا ، فنحن لم نقدم كل ما نملك بعد ، ما زلنا نملك الكثير .

- أؤمن بذلك ، وأؤمن بك صدقني .

- مثل ايماني بك ، رغم انك بعيدة . . . بعيدة يا عزيزتي .

قالت : -

- لننصرف

- هل مللت حديثي ؟

- أرجوك . . شدت على يدي بقوة .

خرجنا إلى ظلمة المدينة التي أخذت تشتد فوق الشوارع الكثيرة ، الفارغة من الناس ، دفعت الحساب ، أربعون قرشاً تناولها الرجل الواقف أمام الآلة الصغيرة التي تلتهم النقود ، خرجنا ملتصقين ، شدت يدي إلى فستانها الأبيض .

- متى سنلتقي ؟

- غداً . . ليكن غداً .

وقفنا ننتظر الإشارة أن تصبح خضراء ، لمحتها تفتح حقيبتها ، أرسلت يدها بها ، عبثت قليلاً وأخرجتها لتضعها في جيبي ، قبل أن أتكلم ، نظرت إلى عيني وقالت :

- أنت تعرف أني لا أتصدق عليك ، فأنا لم اقدم شيئاً بعد .

برود حط على رأسي ، وانتشر بسرعة في جسمي ، لم أتحرك ، انقلبت الإشارة إلى الضوء الأخضر ، مشت أمامي وهي تسحب يدي . في منتصف الطريق ودعتها ابتعدت هي تحت الأضواء التي اصطفت على طول الشارع ، أدرت ظهري ، وضعت يدي داخل بنطالي ، واتجهت نحو الباص الذي أدار محركه ومشى ، لم يكن به سوى شاب وفتاة يتهامسان ويضحكان، يبدو انهما متزوجان حديثاً ، لا ادري كيف عرفت .

(أشياء تحدث كثيراً)

(١)

قام ((إبراهيم)) بزيارة فتاته في أحد الأيام بمكان عملها ، تحدث معها ، ثم انصرف ، في الطريق قابله رجل ، يحمل تحت إبطه جريدة ، أوقفه بعنف وقال :

ـ لن تعود لها ثانية .
لكمه – إبراهيم – بعنف على فمه فأسقطه على الأرض . . سجن بسببها أسبوعا .

(٢)

منذ أسبوع تسلم رسالة من صديق له يعيش في المنفى يقول له فيها :
استمر في القراءة . . الحياة صعبة ولكنها جميلة .

(٣)

قبل شهر سقط جد – إبراهيم – وهو معيله الوحيد ، سقط فوق أرضه ميتاً كان كبيراً بالسن لم يترك الفأس لينفق على تعليم حفيده ، الذي بكى علية بحرقة ، وقت جاءه الخبر .

(٤)

منذ سنة من الآن وقف – إبراهيم – يتكلم في أحد المهرجانات ، انهال علية عدد من الحضور وقد كانوا يرتدون بدلات أنيقة ، انهالوا علية بالشتائم والبصاق .

(٥)

قبل قرون كتب على الحائط يقال بأنه خلق يوم خلق العالم ، كلمات حب رقيقة ، حفظها العشاق عن ظهر قلب ، خطها بعضهم في الرسائل ، تناقلها الفلاسفة والشعراء والعمال . . . وبدهان احمر نسخها – إبراهيم – على جدار غرفته ، الكلمات القليلة تقول : (- اجمل الأيام – على الإطلاق – هي الغد) .

كانت هذه الكلمات ، أول شيء يراه في ذلك الصباح مختلطاً بطيف محبوبته الصغيرة . . . ابتسم لهما ، كبرت ابتسامته ، غطت الغرفة ، انتشرت في الحي ، وأخذت تنتقل في أرجاء البلد . . كبرت الابتسامة ، حتى غطت العالم .

الخروج من دوائر اللاجدوى

خرجت من السجن أخيراً يا ((سليم)) دفعت ضريبة وطنيتك وضريبة الكتب الكثيرة التي قرأتها ، خرجت إلى الأمور التي

صـنعتك وحـاول أناسـها تحطيمـك ، تحطـيم ((سـليم)) الإنسـان ، خرجت ليلقونك بالترحاب والحب ويحتضنك هؤلاء الذين رفضوك ، رفضوا كتبك وخطبك ورموك وراء الجدران عشر سنين .

عمر طويل ، لو انك درست لصرت دكتوراً أو محامياً ، كل شـيء لا بـد وانـه تغيـر وانقلـب ، حتـى فتاتـك لا بـد وإنهـا تغيـرت وصارت زوجة أو أماً .

ما زلت تحن ((لأسيل)) يـا ((سليم)) ، أعطتك العطف الكبير وأنت كنت تحبها ، فكنت تبدو معها كطفل صغير يتحدث عن نفسه ويفرح لأنها تصغي إليه ، يحاول أن يضحكها دائماً ، اه . . دارت الأيام ورحلت ليالي الصيف وقت كنت تمشي معها في شوارع – عمان – تحكيان عن الوطن والسياسة والحب .

((- سوف ننسى السياسة يوماً . قالت .

اجبتها متسائلاً : - ولماذا تحكمين بذلك ؟

فردت – اتمنى أن نختلف بشيء حتى تناقشني إياه ، ولكننا لسوء الحظ متفقان تماما. قلت : -

- ليكن سنتحدث عن الحب كثيراً .

صمت ، وأرسلت يدي إلى شعرها الملقى على كتفها أداعبه وأحاول هرصه بكفي .

- كم أنت ممتعة يا حبيبتي .

- وأنت رائع يا سليم » .))

هل ما زلت رائعاً يا ((سليم)) ، أم أن السنين العشر هذه غيرتك كثيراً ، قد تكون عجوزاً الان بأسنان مهترئة وشعر أشيب.

فترة طويلة لم تقرأ أو تمسك كتاباً ، هل يا ترى الحروف كما هي ؟ أم أن الأيام غيرتها هي أيضاً ، و ((اسيل)) أين هي الان مضت فترة طويلة لم تزرك ، لا أظن إنها ملت أو يئست ، فهي لا تختلف كثيراً عن ((ساشا)) كنت احب مناداتها باسم ((ساشا)) وكانت تسعد هي بهذا الاسم .

((قالت وهي تداعب أزرار قميصي تفكها وتعيد ربطها

- احب أن تدعوني ساشا .

- سأبقى أناديك ((ساشا)) لكني لن أنسى اسمك الرائع هذا ، سأنقشه في ذاكرتي ولن تمحوه الأيام كلها ، اسيل هل حاولت مرة أن تعرفي معنى اسمك ؟

ردت بسرعة نافية .

- لا . . فقد لا يكون اسماً جميلاً .

- أنا واثق من انه سيكون اسماً رائعاً كصاحبته .))

الصمت والظلمة لم يقتلا فيك ((سليم حمدي)) الإنسان ، والسنين الكثيرة التي ابتعدت بها لم تسلبك كلمة كنت يوماً تنطقها، ما زلت كما أنت يا سليم ، مؤمناً حتى النخاع ، كفرت بالذين تراجعوا والذين اشهروا أسماءهم في الصحف . آلمك عليهم كان عظيماً ((كيف تخلوا ؟))

((الأسبوع الأول جلست مع شاب يدرس في إحدى القرى ، كان قصيراً ، نحيلاً له شارب يغطي شفة صغيرة تبتسم دائماً ، وجبهة عريضة خالية من التجاعيد وجهه اسمر مستطيل سألني حال دخولي :

- هل اقدر على الكلام ، أم انك متعب ؟

أجبته وأنا أتهالك على الجدار المطلي بالأزرق :

- حدثني بربك عن كل شيء ، اشتقت لكلمات إنسان ، كلهم بالخارج خنازير ، كلهم .

مد يده إلي بسيجارة مشتعلة

- قد تفيدك بعض الشيء .

سحبت دخانها بنفس طويل وجلست أتأمل ، بدأت وقتها اشعر بالارتياح يمشي في جسمي .

- لم تعترف اذاً ، لو انك فعلت ما رأيت وجهك ، ولكنت الان في حضن زوجتك تنعم بالدفء .

- لست متزوجاً .

ابتسم وقال : هكذا تعفي إنسانة من مشاركتك الألم .

تمتمت باختناق : - وساشا ؟

كان رأسي ملتصقاً بالحائط ، والغرفة قد امتلأت بالدخان ودموعي تنسكب هادئة .))

لتبكي يا ((سليم)) لن يراك أحد ، اخرج أحزان السنين الكثيرة المتراكمة في صدرك ، دعها تنطلق بعيداً ، لا تتركها تقيدك اكثر ، ألم تيأس بعد من السجن ؟ أما كرهت أن يقيدك

أي شيء مهما كان ؟ مسكين يا أنت ، كل شيء يقيدك ، السنين ، الحزن ، طيف اسيل ، كم أنت تعيس وضعيف .

تكاد تتحطم ، تتمنى لو تعود ثانية من حيث أتيت ، ومع هذا تأبى على نفسك البكاء ، تأبى على نفسك التحرر أمام الناس المتحركة بالشوارع هذه ، تكره أن يشفق عليك أحد ، حتى هذه الناس التي كدت أن تموت من اجلها ، وها أنت تخاف أن تبكي معها .

((دخلت الحانة مهزوماً تلاحقك صور اللاجدوى في كل الأشياء . حاولت الهرب من الحقائق المرة التي واجهتك ولاحقتك وكادت أن تكفرك ، تماسكت وصمدت ، دخلت الحانة وأنت تكفر بالخيانة والانهزام والتراجع . . .

طلبت زجاجة كونياك ، لم تنتظر أن يحضرها لك الجرسون، أمسكتها بيدك وبأسنانك خلعت غطائها الحديدي ، سكبت في جوفك ثلثها ، أنعشتك ، لعنت دين الخونة والانهزاميين وصرخت بصوت اضحك كل السكارى : -
ليحيا الوطن ووجه اسيل .))

والان هلا عدت لتلك الحانة الرائعة تهتف للوطن من جديد وتهتف لوجه حبيبتك الراحلة . . .

يا ((سليم)) لم يرحل شيء بعد ، لا الوطن ولا اسيل كلاهما باق ، مازلت تسير في هذه الشوارع والأزقة المليئة بالناس ، مازلت بعيداً عن تلك العمارات الشاهقة ، وستغرق اقدامك الان في الطين وأنت تخترق المخيم ، لن يرحل شيء .

والان ، هل أنت سعيد ؟ هل ستركض تبحث عن اسيل ، تطرق باب بيتهم ، قد تكون ما تزال في انتظارك ، اجل تنتظرك،ولماذا ترحل ؟ . . .

المطر يغرقك وأنت لا تشعر بالبرد القارس البادي على الوجوه الملتحفة أمامك ، ما زالت دماؤك حارة كما كانت منذ زمن بعيد ، قبل عشر سنوات .

((جاءك ثلاثة ، الليل في أخره ، وأنت منكب فوق كتاب ممنوع تأكل اسطره وصفحاته ، جاءك ثلاثة ، لم تدر من أين ،

الباب ، السقف ، النافذة ، المهم وجدتهم أمامك يضحكون ، وأنت بقيت تضحك انحنى أحدهم صوبك وقال : -

- ستسأل كيف وصلنا إليك ؟

أجبته أنت ببرود :

- لا . . .

استاء جداً ، ولطمك على وجهك ، لم تلعنه بمقدار ما لعنت الخيانة وأنت تغلق الكتاب ، وتسلم يديك للحديد الذي يحمله ، أخذوك في تلك الليلة قبل سنين عشرة ، يحاولون خلق المبررات لخوفهم العظيم منك فاعتقلوك ، جاءك ثلاثة في ليلة باردة ، خرجت وصورة ((اسيل)) على الجدار تبتسم ، ما زالت تلك الصورة مرسومة في رأسك .))

ها هو المخيم يبرز من داخل الأرض ، يسمو ويحطم كل الحواجز والألم ، ما زال كما كان شامخاً ، يحاول الانطلاق ، وما زال الأولاد يلعبون لعبتهم المفضلة ((أبطال وحرامية)) وما زال الأبطال ((ينتصرون)) لتخطو يا ((سليم)) خطواتك التالية ، لتضغط الطين المقدس من جديد ، طين المخيم ، أخيراً اشتقت له، لا تلتفت ، استمر بالمسير ، ها هو ((أبو صالح)) في فرنه يقذف الخبز الساخن ، نظرت إليه ، لم يعرفك ، ولكنه عاد بالذاكرة سيعرفك الان ، وسيلحقك . وها هي الحاجة العجوز تبيع الأولاد ((الملبس والقضامة

)) ، هذه عرفتك ، ذاكرتها لا تخيب ، اذهب إليها لتعانقك ، اركض لتمنع دموعها من الانهيار . .

- سليم . . يا حبيبي يما ، حمدالله على السلامة .

ها هي تبكي يا ((سليم)) ، ابك معها ، طهر ضميرك من أحزانك الكثيرة .

- سأرى اسيل .

- ما زالت تنتظرك .

هل سمعت ، اسيل تنتظرك ، هذا ما قالته ((الحاجة)) شد خطاك اذاً ، لا بد وإنها الان جالسة فوق كتاب ما ، تقلب صفحاته وتتذكر كلماتك لها ، أليس ذلك الباب الحديدي ببابهم ؟ اجل هو،وما هو أخوها الصغير يحاول غسل الأدراج القليلة من الوحل، اصبح شاباً ، لن يعرفني ، اتركه واستمر ، خطوات فقط، هيا ، اطرق الباب ، طرقتك العادية المعروفة لها ، هيا ارفع يدك و ...

وانهالت يدك على الباب ، وجاءك ذلك الصوت الذي فقدته كثيراً ، لتصرخ الان من جديد : -

ليحيا الوطن ووجهك يا حبيبة .

يا ((سليم)) أما آن لك أن تبكي ، ولو فرحاً ؟ ؟

العودة من منافي الألم

فقدت أبي لا اعرف كيف . قالوا انه حكم بالسجن المؤبد ، وأخرون قالوا انه قتل ، والبعض كان ينعته بالشهيد ، أما انا فلم اعرف عنه سوى انه خرج يوماً باشاً فرحاً . . . ولم يعد .

الحقيقة كاملة كانت تسكن عيني أمي ودموعها ، ما آل إليه أبي تعرفه هي فقط ، وان رغبت ساعة في التحدث عنه اشعر بها تتألم ، تخفض رأسها لتخفي دموعها ، انسحب من البيت بهدوء وفي رأسي يصرخ سؤال : أين ذهب ؟ .

في ساعة العصر احمل كتاباً وأسير باتجاه الجبال البعيدة عن البلدة ، اجلس تحت إحدى الشجيرات ، تظلني من أشعة الشمس المحرقة ، في أيام تموز ، اشعر بابي يخرج من الأرض يجذور هذه

الشجرة يحفظني ساعات طوال وأنا أقرا . وفي ساعة المغيب أعود إلى البيت واجد أمي قلقة بانتظاري و ((ياسمين)) تنتظرني بالشرفة مضطربة . لربما كنت سيئاً . . لا اعرف ، ولكني تعيس والأرض غريبة ، الأزقة مملة تجثم علي يأساً وألماً، الجيران ينظرون إلي نظرة احتقار دونما سبب .

وفي النهاية . . . . أو في البداية لا ادري . المهم أني قررت الرحيل ، أن احمل حقيبتي واقبل يد أمي ووجنة ((ياسمين)) وهما كل ما املك . . . وارحل ، وقد أكون مصيباً .

((التقيت ((ياسمين)) تحت شجرة سرو شاهقة ، جلسنا على المقعد الخشبي الطويل تقضم البزر وتنظر إلى بحنان وحب .

- سأرحل .

أقولها بكل بساطة ، تكف هي عن المضغ ، تنفض يديها وتنظر إلى مندهشة تسألني :

- إلى أين ؟ . . . هل ما زال هذا الأمر يراودك ؟ .

- يجب أن ارحل ، لم اعد أطيق .

محاولاتي للخروج من بحر الموضوع فشلت كلها ، بقيت واجمة تمزقني بصمتها البعيد .))

الشمس تنحدر خلف الجبال كتلة حمراء ، أعود إلى البيت حاملاً تحت إبطي مجموعة من الكتب والأوراق ، تستقبلني أمي بابتسامتها الشابة تعد لي الطعام بسرعة ، تجلس أمامي تراقبني ابتلع لقيماتي وفي عينيها بحر عظيم من الشفقة ، تتركني لتعد الشاي . حبي ((لياسمين)) كان الشيء الوحيد الذي يربطني في بقعة الأرض هذه ولربما شيخوخة أمي أيضا.

((- أود أن تأتي الساعة التي اقرر بها الرحيل .

- القرار اصعب خطوة يعيشها الإنسان . . .

تكمل ((ياسمين)) وهي تلمس رأسي بإصبعها .

- يستحيل الرجوع عنها .

- هل كان حبنا نتيجة قرار ؟

اسألها فترد مبتسمة :-

- كنت دائمة صائبة بما اقرر ، سيما عندما أحببتك))

- يشتد آلمي ، وتبقى ذكرى أبى بعيدة ، يتحول رأي بعض الناس به . . . فيزداد حقدي عليهم ، اقف أمام بيتنا لحظات تغلق بوجهي النوافذ ، أرى إحداهن تبصق بوجهي كأنها تعطي ضريبة مفروضة عليها .

لم يبق لي شيء . . . أكاد انفجر ، تمسح أمي على رأسي ، تبتسم بمرارة .

- هذا قدرك يا ولدي .

أجدها فرصة مناسبة . . . اصرخ بأمي .

- ليس قدرى ، أين أبى أريد أن اعرف أين هو ؟

تبكى من جديد ، أضم يدها إلى شفتي ، ابكي أن تغفر لي .
يوم واحد وأرحل ، أخاف أن اعدل عما عزمت علية أن أطلت مدة بقائي .
كم احب أن ترافقني ((ياسمين)) .

((نهبط شارعاً ترابياً ، نبتعد به عن أزقة البلدة القذرة ، صبية صغار يتسلقون أشجار السرو أمامنا ، امسكها من يدها نجلس تحت شجرة .

- احبك أن تبقى معي .

- سأرحل . . . وغداً .

- هل تحبني ؟

- احبك . . . واحب الأرض .

- أريدك أن تستقر .

- لهذا ارحل .

تحاول أن تخفي دموعها . نقف ، اطبع قبلة على جبينها ، ألمس شفتيها بهدوء ,تلقي برأسها على صدري .
- ستذهب أمي إلى البيت خالي ستزورينها ؟

تحني أمي رأسها وهي تزم شفتيها عدا دمعة لمستها))

امسك حقيبتي الصغيرة ، اسندها على يافطة بانتظار القطار، وأمشي على الرصيف الخالي من البشر ، يبدو لي وكأني الوحيد العازم على السفر ، فلم أتراجع ، اسمع صفارة تأتي من بعيد ، ازداد تصميماً ، انقل بصري إلى البلدة البائسة ، يهزني ، يظهر القطار من بين العربات المصطفة في المحطة وقد علا الصدأ دواليبها ، يتوقف أمام اليافطة وهو يخرج صوتاً صاخباً ودخاناً ابيض ، ادفع حقيبتي بقوة داخل احدى القاطرات ، القي نظرة أخيرة على البلدة خلال صمتها المميت ، المح طيفاً يهرع من بعيد يستوقفني ، يصرخ بي رجل يرتدي قبعة زرقاء : (أسرع) أشير أليه ، انتظر ، ابتعد مسرعاً عن القطار باتجاه الطيف الذي بدأ بوضوح لي ، أضم ((ياسمين)) إلى صدري بحرارة ، نهرع معاً إلى القطار وصفارته تدوي ، مؤذنة عن بداية الرحيل .

١٥٣

ما زال حبك يكبر

صفير الرياح يغزو السماء مسرعاً ، البرق يلمع مع تجلجل الرعد ، والأمطار تنهمر . . . تنهمر . . .

تغرق الجبال ، الوادي ، المدينة ، الحي ، الحارة ، بيت – أم سالم - ، سقفها الذي يدلف ، أوراق سالم التي نسيتها أمه ، الطاولة التي صنعها سالم ليقرأ ويكتب عليها، المقاعد المصنوعة من القش، والتي يجلس عليها أصدقاؤه ، الأرضية التي مسحت بالأسمنت فلم تستو تماماً .

المطر اغرق كل شيء حتى أفكار . . أم سالم التي جلست قدام – الكانون – تحرك الجمرات بملقط من حديد ، تمدها ببقايا روح حتى تبقى مشتعلة . . . وسالم لم يأت بعد .

لربما جلس يطالع مع رفاقه ، أو ما زال في – مقهى ربيع– يحتسي كوب شاي ساخن ليحرك الدم في جسمه ، لا يحب أن يتعبني في هذه الليلة الباردة . . .

- الله يرضى عليك يا سالم .

وكبر – سالم – اصبح شاباً ابن عشرين ، وكيف – يا أم السالم – دارت ها الأيام أخ .. كانت طويلة ، صعبة ، وتعبة ، وسالم يجري في – الحاكورة - ، وكل يوم تشتد بنيته وتقوى ، رجلاه ، ودمه . . . وأعصابه صار رجلاً بحق ، يبتعد عن البيت يركض ، وراء الجبال ولكنه يعود ، يعود ليحضنني ويحدثني عن الفخاخ ، والصيد ، والشنانير الكثيرة التي كان يصطادها .

- صيد اليوم بركة يا أمي .

رجل من طفولته ، يحب المغامرة ، يتسلق الجبال ، يصيد الشنار ، ويساعد عمه – عبد الحميد – بالحصاد ، ويقطف التين ، وفي الحرب كان يهتم – بسلمى – جارتنا وأطفالها ، بعد أن ذهب زوجها مع الجيش .

- الله يحبه ، يحب الخير لكل الناس .

نجح في الإعدادية ، كان مسرعاً وحاملاً بيده قطعة جريدة رمى نفسه على صدري وبكى ، بكينا من شدة الفرحة .

- لازم اكمل دراستي ، واحمل شهادة .

- يا عين أمك ، التعب معك راحة .

يغمر قلبي بالفرحة ، أحس نفسي املك العالم وقت ما يلقي رأسه على حضني ، أضع يدي على شعره ، أداعبه ، واقرأ له

فترتاح نفسه . . لم يترك عادته منذ صغره وحتى اليوم . في العطلة الصيفية كان يشتغل عند دكان – أبي خالد – يساعد في اشغاله ويبقى يعمل ، ويدخر حتى يوفر مبلغاً يشتري لي قطعة قماش (حبر) اسود ، يلفها حولي يضحك ويقول :

- وين أبوي راح ، لو شافك هيك ما مات . ونبقى نضحك تلك الليلة ، ونضحك على حالتنا لثقتنا بأننا لن نقدر على خياطة الثوب حتى العطلة القادمة . ويوم كانت الحرب ، سمعنا أن العرب دخلوا فلسطين القديمة ، كلنا فرحنا للنصر ، عدا – سالم - ، دخل البيت واخذ يبكي وينتحب بصوت مرتفع ، أفهمني انه قابل جماعة من قرى الحدود وقالوا له أن اليهود دخلوا قراهم بدبابات عليها أعلام دول عربية . ويومها اتعبني فصرخت به :

- مش الزلام اللي بتعيط .

أول مرة في حياتي بصرخ في وجه – سالم – دون أن اندم . دخل اليهود البلدة ، حلف بتراب أبيه – وعمره ما حلف كذب انه لن يطلع ولو مات ، بعد شهرين صار يغيب عن الدار طويلاً ، ويبدد قلقي عند عودته مبتسماً ، وكنت استفسر عن مكان ذهابه فيجيب بأنني سأعرف يوما ما .

ظننت انه يحب إحدى الفتيات ولا بد أنى سأخطبها له بعد أن ينهي دراسته لكن الأيام طالت دون أن يأخذني معه ، كان

يرجع ليقبل يدي ، ويضع رأسه على حضني ويتركني اقرأ له سورة من القرآن ويهمس – علي صوتك بالله .

وكنت أعيد وارفع صوتي بالقراءة .. ومرت الأيام .. صار يخرج في الليل ويتأخر ، وكان يزوره رجال لم أرهم من قبل في البلدة ، كانوا طيبين ، صنع طاولة خشب وكان يقعد مع هؤلاء الرجال طوال الليل يقرأون ويكتبون .... ينصتون إلى الراديو القريب من آذانهم وأنا اعمل لهم الشاي فيسرع واحد منهم ويبوس أيدي . والله كنت ابكي من فرحتي فيهم .

المطر ينهمر بغزارة كل شيء يغتسل ، أصوات المزاريب تشتد والرعد ما زال يقصف ، والسنة .. سنة خير أن شاء الله .

***

ها هي أصوات أقدامه تطرق الأرض ، مشية رجل واثق ، اقترب من الباب وصار يمسح حذاءه من الطين ...

فتح الباب ودخل صاحب قامة ممشوقة حسن الطلعة ألقى التحية على أمه الجالسة بجانب – الكانون - ، خلع ملابسه وارتدى البيجاما بسرعة ، سألته – هل اعمل لك الشاي ؟ - سلمت ... شربت في قهوة ربيع .

تضحك له بكل حنان العالم ، يلقي رأسه على حضنها ، وتأخذ هي بالقراءة يغمض عينيه بسكينة ويقول :-

- علي صوتك بالله يا أمي .

الحرب . . .
وشيء أخر يتبع

١ – مشهد عادي للغاية :

ما هو إن تسحب أقسام سلاحك ، وتضغط بهدوء على الزناد ثلاث مرات تأخذ بين المرة والأخرى راحة تستغرق ثانية أو جزءاً من الثانية .

المكان : بقعة في العالم .

الزمان : عصر من العصور .

الحالة : حرب .

يرجع صدى الرصاصات الثلاث من بين الجبال الشاهقة المحيطة بالمنطقة ، يسقط شاب بوجه اصفر وثقوب ثلاثة متقاربة في صدره .
(ويلي !!)

تجثو امرأة قصيرة القامة على الأرض ، تغرس أظافرها في التراب الأحمر ، ترفعه فوق رأسها ، تعيد مرة وثانية وثالثة .

طفل قص شعرة بشكل دائري ، انف افطس احتل مكاناً بارزاً في وجهه ، يهبط مع جذع أحد الأشجار ، ينظر إلى الشاب الممدد واللون الأحمر يصبغ قميصه فيلتصق بالمتبقي من لحمه .. لسبب ما يبكي .

الليل في النزع الأخير ، خيوط حمراء أخذت تبرز من خلف الجبال مرافقة صدى الرصاصات الثلاث ، الأرض شديدة الخضرة ، كوخ مقوس الشكل انتصب في الأرض .

أنزل رجل يرتدي بزة عسكرية سلاحه بجانبه ، اخرج ابتسامة من بين اسنانه الناصعة ، أدار وجهه نحو رجلين جلس أحدهما على مقعد مصنوع من القصب فاحتوى مؤخرته وظهره فلم يبد منه سوى رأس كبير لا يكاد يفصله عن اكتافه فاصل ، والثاني وقف يراقب الأحداث التي تدور بفرح ابله .

الرجال الثلاثة بيض البشرة ، عيونهم زرقاء ، شعرهم أشقر ناعم ، صاحب السلاح الساخن يمضغ نوعاً من اللبان ، الاخران يحمل كل منهما سيجاراً . كأي عمل يومي يقوم به الإنسان تمت العملية ، ابتسم الرجل الجالس في مقعد القصب قال : ((ما اهون ان تسحب اقسام سلاحك)) .

- هل اتبع على هذه العجوز ؟ .

تقف المرأة تنصب صدرها .

- اجل .. افعل .. افعل .

سقطت على الأرض بقوة ، رفست التراب برجليها . تخرج قهقهة من الثلاثة ، الطفل الصغير صاحب الشعر المستدير يرمقهم بعينية المغرورقتين بالدمع لأمر ما .

٢ ــ الضمير :

- السيد – ج – أنت متهم بقتل مدنيين عزل .

- اجل فعلت .

- ما هو دفاعك ؟

- المكان : قاعة المحكمة العامة لإحدى الدول .

- الزمان : نفس العصر السابق الذكر .

- الحالة : متوتر قليلاً .

- ما هو دفاعك ؟

صرخ القاضي ، كتلة بيضاء على رأسه ، _ نظارات صغيرة ارتكزت فوق أرنبة انفه ، امسك بيده مطرقة من خشب الزان كان يستعملها عند الحاجة .

- لست بصدد الدفاع عن نفسي .

- هل أوكلت عنك محامياً ؟
- لم اعن هذا ، وإنما قصدت اني بريء .

- أهكذا بسهولة ؟

- اجل .

همهمات في القاعة ، تتوالى الطرقات على الطاولة التي اخفت القاضي ورجلين آخرين .

- لقد قمت بقتل شاب اعزل وأمه ؟

- اجل .

- وهل تعتبر نفسك بريئاً بعد اعترافك هذا ؟

يحتد القاضي .

- سيدي القاضي .

- يتكلم – ج – للمرة الأولى واقفاً .

أنت والسادة المحلفين .

يشير بيده الى جماعة جلست في إحدى الزوايا بوقار في ثلاثة صفوف ،

وكل الحضور .

يبتسم شاب في أخر القاعة .
- كلكم يا سيدي تعرفون أني كنت مشتركاً في الحرب .

يكمل :

- كلكم يعلم أني كنت جندياً في إحدى الفرق الانتحارية ، كل هذا بالإضافة للظرف الذي كان سائداً آنذاك ، فلم اكن ذاهباً في نزهه ، أو رحلة استجمام .

يحاول القاضي مقاطعته .

- سيدي تدربت سنتين على الشدة والقسوة والعنف ، تدربت سنتين ان اقتل ولم اتدرب ساعة واحدة أن احب ، تعلمت اني ذاهب لمواجهة وحوش لم أتعلم اني سأرى بشراً .

- ولكن هناك معاهدة تحرم قتل المدنيين ، وأنت بفعلتك ضربت بهذه المقررات عرض الحائط .

- الميزان خلف القاضي بدا غير متوازاً تماماً ، شخصية- ج – ببدلته السوداء وربطته جعلت مجموعة من النساء يتحدثن عنه .

- قبل ان اضرب هذه المقررات عرض الحائط ضربتم انتم – سيدي – بمقررات اعظم منها للسلام، مقررات انزلتها السماء.

- أنت تهاجم السلطة بقولك هذا .

يقف محامي الدفاع محاولاً الاشتراك بالجلسة ويكمل :

- كما أننا يا سيد –ج– لا نعلم القسوة نحن أهل محبة وسلام.

يتناول كأساً من الماء أمامه، يجرع نصفه، يقول وهو يبتلع ريقه.

وان حاربنا فأننا نحارب من اجل السلام .

يبقى – ج – مبتسماً وهو يستمع لمحامي الدفاع .

- كما إن هناك اثنين آخرين اشتركا بهذه المذبحة ، وهؤلاء لابد وان يعاقبا .

- ما ردك على كلام السيد محامي الدفاع ؟

قال القاضي .

- السيد محامي الدفاع لم يتعرف على الحرب الا من خلال الصحف وما يقرأ بها .

تحمر وجنات – ج –

- كنا يا سيدي نحتاج الى ساعة راحة ، ساعة لهو ، نحتاج امرأة، كل هذا لم نجده ، فكان لا بد ان نصنع شيئاً وان نلهو كلما سنحت الفرصة ، تضج القاعة يرفع القاضي المطرقة ، يصمت الجميع قبل ان يعيدها بشدة الى الطاولة .

- القتل اصبح لهواً يا سيدي بعرف – ج - ، إن المجرم يدان بلسانه .

يميل القاضي صوب المحلفين وبيده ورقة، ينظرون الى الورقة، يحني بعضهم رأسه، يعيد القاضي مسك الورقة ويقرأ :-

- لقد تقرر تأجيل الجلسة حتى اليوم (س) للنظر في التهمة الموجهة للسيد – ج – ورفاقه .

٣ – أحداث اليوم (س) على الصعيد الإعلامي والجماهيري .

- المدينة

كان يوم (س) مشحوناً بجو من التوتر والاضطراب ، الهواء ثقيل ، اكفهرار شحن السماء ، الحر شديد ، مدرعات ، جنود بأسلحتهم يجوبون الشوارع ، إحدى المواطنين في مكتبه قال :

(اشعر بهذا اليوم جاثماً على صدري لا يريد إن يتزعزع)

لم تستطع سكرتيرته إن تسعده كعادتها .

النهار ممل رتيب يأبى ان ينتهي ، الناس تحاول التقليل من الكلام ، فتاة مراهقة بصقت بوجه عشيقها عندما لمس خدها بيده، هو كان يشعر بقرف وهو يرفع يده اليها .

الإذاعـــة :

نشرة الأخبار ...

تقرر اليوم بصورة مفاجئة ، تأجيل جلسة محكمة المتهمين العسكريين ، الى اجل غير مسمى ، والتي كان مقرراً عقدها اليوم ويقول المراقبون إن المتهمين الثلاثة أطلق سراحهم بكفالة مالية دفعها أحد وجهاء المدينة .

الصحف :

برزت العناوين الرئيسية التالية في الصحف الصادرة في اليوم – س - : -

(تأجيل جلسة المحكمة الى اجل غير مسمى ، يلاقى بارتياح جماهيري) .

(المواطنون ، يطالبون بإطلاق سراح المتهمين الثلاثة) .

(بادرة إنسانية يقوم بها أحد الوجهاء من اجل إطلاق سراح المتهمين الثلاثة .)

الإذاعة مرة أخرى :

ما زال البحث جار عن شاب قام بوضع عدد من الألغام في قاعة المحكمة العامة ، سنذيع عليكم بعد قليل مواصفاته .

المواطنون :

ـ لقد استطعت ان أتصور مع – ج – وهو خارج من المحكمة.

قال شاب من الهيبز .

فتاة ترتدي – المني جيب – وتضع قلادة على شكل نجمة حول عنقها قالت بفرح :

ـ لقد وقع لي على الاوتجراف ثلاثتهم .

الصحف المسائية :

تحت عنوان ((مستعجلة جداً)) .

البوليس يبحث عن شاب قصير ، قص شعره بشكل دائري ، وبأنف افطس ، يشتبه بأنه وضع عدداً من العبوات الناسفة في قاعة المحكمة العامة ، ومن الملفت للنظر انه وجد عبوة كبيرة تحت المقعد الذي كان مقرراً أن يجلس عليه المتهمون.

الإذاعة مرة ثالثة :

أدى الانفجار الذي وقع في قاعة المحكمة العامة الى تحطيم ميزان العدل وانهياره على القاضي - . . – الذي كان يغلق ملف القضية .

ومن الجدير بالذكر ان هذا الميزان كان يعتبر من التحف النادرة في البلد .

المواطنون :

يجب ان نحزن ما يكفينا من المؤمن . (قال أحدهم)

الأخر يكلم صديقة بارتباك :
- لقد اتصلت بصهري في مدينة (. . .) ، لكي ارحل أنا وزوجتي عنده .

الصحف مرة ثالثة :

انفجار لغم في الطائرة المتجهة الى أحد المصايف ، ينتج عنه مقتل طاقم الطائرة ، والمسافرين الثلاثة الوحيدين . والجدير بالذكر إن المسافرين هم المتهمون بقضية قتل المدنيين .

قبل الطبع :

الشاب اللغز المسؤول عن الألغام لم يعثر له على اثر .

المواطنون مرة ثالثة :

ـ لقد اصبح وضع البلد سيئاً للغاية .

شاب يرتدي بذلة جميلة ، تألقت ابتسامة بين شفتيه قال :

ـ ملثما تدين تدان . . .

أخر الأخبار :

الناس يلتفون حول الشاب اللغز بكل حب وثقة وما زالوا يتكاثرون حوله حتى هذه الساعة . . .

يا طائر الفرح الجميل غني . . .

قصص قصيرة جداً :

همست لي المرأة العجوز الجالسة خلف فنجاني وبعينيها بريق يذكر بأشباح القصور المهجورة ، همست تود اجتذابي اكثر لكلماتها . . .

((أحببت كل الناس ، لكنهم كرهوك))

***

في الطريق الى البيت ، توقفنا ننظر الى إحدى اللوحات المعروضة خلف زجاج محل ، اعترضنا ، قالت :
- انتم كالحنطة تولدون في كل ارض –
- نظرت اليها وتابعنا المسير .

***

ليلة العيد والثلوج تتساقط بهدوء وسلام ، لعبنا ، رقصنا ، غنينا بلغتين ، شربنا حتى الثمالة ، تبادلنا القبل في منتصف الليل، لعبنا ((البنجو)) خسر الجميع حتى صاحب اللعبة ، سمعنا صوتاً تخلل الثلج يصرخ :

- اقسم إن أظل احبك يا حبيبة –
اسودت وجوهنا ، وقذفنا الرجل صاحب الصوت بعلب البيرة الفارغة ، لكنه ظل يضحك .

***

في ركن المقهى كنا صامتين حزينين .
قالت : احبك .
قلت وأنا أيضاً .
وبكينا معاً .

***

اسند مدفعه فوق حجر قريب ، واخذ يفرك يدية فوق النيران المشتعلة أمامه بفرح ومتعة ، عندها سمع الأجراس تدق ، تمتم وهو يضحك :-

مضى عام والقادم أجمل .

الثلج كان يتساقط فيغطي قبعته وأرنبة انفه ، كتل بيده كرة ثلجية أرسلها الى فمه يمتص مائها ، تحسس ذقنه فوجدها قد طالت بعض الشيء ، عاد يتمتم :

يجب ان احلق لاحتفل بالعام القادم .

***

((حبيبي . . .)) كتبت وتوقفت لحظة تداعب بأسنانها القلم ، فكرت قليلاً ، ثم عادت إلى الورقة ثانية .

حبيبي . .

كم هو ممتع إن نبتعد لنلتقي ثانية ، الست معي ان حياتنا هي اجمل الأشياء وان سعادتنا كلها في الآلام الصغيرة التي نعيش ؟

حبيبي . .

راسلني دائماً .

(المخلصة ف)

***

قال لي الرجل العجوز ، وبيده زجاجة مفلطحة يرفعها إلى فمه ويعيدها ثانية إلى الطاولة ، وهو ما يزال يحاصر عنقها بأصابعه الغليظة :-

- عن ماذا سنتكلم ؟

أجبت – عن كل شيء .

قال وهو يعيد الزجاجة إلى فمه :-

- دعنا نطلق السياسة والخمر ، ونحضن الحب والحزن . .

رفع إصبعه وتابع . .

الليلة فقط .

***

((يا طائر الفرح الجميل ، غني ، فقلوبنا مملوءة محبة ، وأشجارنا ما زالت تنمو وتزداد اخضراراً ، وأحزاننا رحلت تعانق النجوم فعادت مليئة بالفرح ، كل شيء جميل يا طائرنا ، أمي ، أختي حبيبتي ، الكون هذا جميل ، يا حبيبنا . هل رأيت الشمس اليوم ؟ إنها اكثر جمالاً ، وأمي ما زالت تضحك ، نحبك يا طائرنا يا طائر الفرح الجميل . . . غني ، سيطلع الفجر ، سيطلع . . .))

رفض طائرنا أن يغني في البداية ، أطلقناه من القفص ، فأخذ يغني بفرح عظيم ، سمعه العالم كله .

***

المحتويات

صفحة

1 - الفرح وآلهة الحزن . 5
٢ - الحب سيطرق كل الأبواب _ ثلاثية 12
٣ - حوارية فلسطينية . 19
٤ - ذكرى ليلة حزينة. 23
٥ - آن لنا أن نفرح . وتبقين رغم سواد الليل حبيبة . 28
٦ - الخروج من دوائر اللاجدوى . 33
٧ - العودة من منافي الألم . 41
٨ - مازال حبك يكبر . 46

٩ - الحرب وشيء أخر يتبع . 50
10- يا طائر الفرح الجميل غني . 60